صورة البحر فى الخطاب الشعر الحديث

د. عبد الناصر هلال
مدرس النقد الأدبى الحديث
كلية الآداب - جامعة حلوان

البحر الذى تتخذه هذه الدراسة منطلقاً لها هو ذلك الحيز المائى ، الذى يتميز بالاتساع والعمق ، و"الغنى بالعجائب المثير للخيال ، من الأسماك إلى الحيتان ، ومن الأمواج والعواصف إلى الأنواء إلى الشعاب والصخور المضيئة ، أبدع الخيال الإنسانى الأسطورة البحرية لتفسير تلك الغرائب والعجائب الطبيعية"(١).

وقد غزا الإنسان البحر من أجل اكتشاف المجهول ، وفتح آفاق جديدة ، وإثراء الحياة البشرية ، والقضاء على اغتراب الإنسان وعزلته ، وتنمية عوامل الاتصال الإنسانية ، ومن أجل تعزيز سيطرته على قوى الطبيعة وترويضها وتوظيفها لصالح البشرية ، وكان الأدب طليعة لاكتشاف عالم البحر وفهمه وتفسيره"(٢) ؛ ومن هنا امتلأ الإنسان بالرغبة الجارفة - على امتداد التاريخ - فى ارتياد البحر "وتسجيل عالمه الجميل المضطرب ، وابداع النماذج الأسطورية والرومانسية والواقعية المثيرة عن تطور علاقة الإنسان بالبحر ، والتى تتراوح بين القوة والضعف ، من ارتياد الطبيعة البحرية وتحديها إلى الخوف والاستلام لها"(٣). "فالروح العظيمة لا يمكن تصورها بمعزل عن رحلة فى البحر ، هذه الرياضة التى تثقف النفس وتهز بعض أركانها ، فالروح العظيمة روح مهاجرة أو مرتحلة ، وركوب البحر أهم العلامات وأوضحها على الرغبة الكامنة فى النمو"(٤).

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن خلال هذه العلاقة التى تتسم بالصراع صاحب ارتياد الإنسان للبحار والمحيطات ظهور أدب البحر. وأدب البحر الذى نعنيه "هو ذلك الأدب الذى يستهدف التعبير عن عالم البحر"[٥] ، من خلال مجموعة من الخصائص الجمالية والفنية والإيحائية التى يستطيع أن يحققها البحر وحقوله فى النصوص الشعرية ، بحيث يصبح رمزاً قادراً على الإيحاء.

والرمز كما يرى أدونيس : "يكاد يكون فى معظم هذا النتاج مجرد تسمية ، مجرد إشارة تاريخية ، مجرد لفظ حين لا ينقلك اللفظ بعيداً عن تخوم القصيدة ، بعيداً عن نصها المباشر لا يكون رمزاً. الرمز هو ما يتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النص ، فالرمز هو قبل كل شىء معنى خفى وإيحاء"[٦]. والبحر طاقة إيحائية كبيرة.

لقد استطاع الشعراء العرب – فى كل العصور – التعامل مع البحر بوصفه عالما موحيا فيه طاقة إيحائية كبيرة ، مهما اختلفت الرؤية والأداة ، فقد استطاعوا من خلاله استيعاب تجاربهم وهمومهم خصوصا فى العصر الحديث.

(أ) البحر فى الشعر القديم :

القصيدة العربية الجاهلية تتنوع فيها الأغراض ، حيث تبدأ بالوقوف على الأطلال وذكر الحبيبة ، التى خلفت وراءها رصيدا من الحرمان العاطفى ، وهذا الجزء من القصيدة عرف بـ"النسيب" ، وهو يعد أكثرها حرارة وتدفقا ، وتحليقا خياليا ، ثم ينتقل الشاعر إلى الوصف ، فيصف رحلته ومعالمها ، وناقته أو فرسه. وقد تتجلى فى هذا العالم صورة البحر ، بوصفه جزءا من الطبيعة.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمطالع للشعر العربى الجاهلى يستطيع أن يقف علـــى علاقـة وطيدة بين الشعراء والبحر ، فهم وصفوه فى قصائدهم ، واستمدوا منـــه صورهم ، واقتربوا من عالمه الثرى العميق ، فرسموا له صورة جذابـــة طبقاً لمشاعرهم وأحاسيسهم الخلاقة.

فقد حفلت قصائد الشـعر الجـاهلى – وخصوصـاً المعلقـات – بالحديث عن البحر وعالمه ، ويجيء "طرفه بن العبد" فى مقدمة هـــؤلاء الشعراء الذين فتنوا بالبحر فحفلت قصائده بذكره ؛ حتى سمى شاعر البحر فى العصر الجاهلى ، فقد فتح عينيه على البحـــر وعالمـــه منـــذ نعومـة أظافره، وقد توفى بالبحرين حوالى (٥٦٤م).

وقد وردت صورة البحر وعالمه من سفن ورياح وأمواج وغيرها فى معلقته الشهيرة ، حيث صور موكب رحيل المحبوبة ، وربـــط بينهـا وبين صورة منقولة من عالم البحر ، يقول طرفه مشبهاً هودج محبوبتـــه (خوله) فى رحلته وهو محاط بهوادج صويحباتها وأهلها :

كـــأن حـــدوج المالكيـــة غـــدوة خلايا سفين بالنواصف مـــن دد

عدولية أو من سفين ابـــن يـــامن يجور بها الملاح طورا ويهتـــدى

يشق حباب الماء حيزومهـــا بهـــا كما قسم الترب المغايل باليد[٧]

وتظهر صورة البحر عند امرىء القيس عالمـا يتسـم بالاتسـاع والتتابع والظلمة ، فهو سكن الهموم المتأججة الثائرة ، خصوصا وأنه ربط بين البحر والليل المدلهم ، الذى يفجر فى نفس من يقف أمامـــه مخـزون الحزن والهم والآلام فى كثافتها وشموليتها ، فيقول فى معلقتـــه واصفـا الليل:

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأدرف إعجازا ونآء بكلكل
إلا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل[٨]

كما ورد البحر فى قول الشاعر الجاهلى "المثقب العبدى" :

أكلتنى أدواء قوم تركتهم وإلا تداركنى من البحر أغرف[٩]

وبالرغم من النصوص السابقة فإننا نستطيع القول بأن البحر فى عالم الشاعر الجاهلى لم يشغله كثيرا ، حيث لم تعدد صوره على الرغم من كثرة تردده فى ثنايا القصائد فى صورة أبيات مفردة. فالشعر الجاهلى يعد الإرهاصات الأولى أو البذور الجنينية التى تبلور عالم البحر بوصفه جزءا من الطبيعة بجانب أفكار الشعراء وتأملاتهم ، وفلسفتهم "وبهذا تتحد النوازع النفسية بالملامح المكانية الموحية بالهدف والغاية عند كل شاعر تبعا للغرض الشعرى والمعنى.. فكل شاعر يتصيد من البيئة البحرية ما يلوح لخاطره ويفصح عن أفكاره ، ويعبر عن مشاعره"[١٠].

أما مفهوم البحر ودلالته عند شعراء الدولة الإسلامية ثم الأمويين فالعباسيين فقد تطور حيث انتقل البحر من مفهومه الحقيقى إلى مفهوم مجازى ، فأبو نواس مثلا يستخدم البحر دلالة على المرأة ، وركوب البحر إشارة إلى الممارسة الجسدية معها ، فيقول :

فآليت ألى أركب البحر غازيا

حياتى ولا سافرت إلا على الظهر[١١]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

(ب) البحر فى الشعر الأندلسى :

هيأت البيئة فى بلاد الأندلس مناخا ملائما أغرى الشعراء الأندلسيين بالطبيعة ، والبحر واحد من أهم معطياتها لجمال منظره واتصاله الوثيق بها حيث يحيط بها من جوانب عدة ؛ لذا كثرت النصوص الشعرية التى يتجلى من خلالها البحر فى صور كثيرة ، تخضع لحالات الشعراء وأحاسيسهم وقدراتهم التعبيرية المتفاوتة ، فجاءت جميعها تدور فى محاور ثلاثة :

(أ) الرهبة من البحر :

يعد هذا المحور تعبيراً طبيعياً عن قلق الإنسان إزاء الغامض الثائر المجهول ، فدخل معه فى معترك نفسى متأزم وصراع كبير ، وقد "وقف الشعراء الأندلسيون فى أشعارهم البحرية إزاء البحر فى نظرة متأملة تجعله مركزا من مراكز الصراع ، فهو مصدر الأهوال ، والخوف والرعب ، إلى جانب كونه يحجب الخير فى أغواره وقيعانه ، وهو سبيل الوصول إلى الغايات والآمال العريضة حتى ينقطع الصبر وتتعذر رحلته"(١٢).

والرهبة من البحر سمة يشترك فيها البشر جميعا ، فهو المجهول العميق المعتم الثائر ، الذى لا يستقر على حال ، فالرهبه والوجل منه ليس أمرا خاصا بالأندلسيين وحدهم ، فالأساطير القديمة والأمثال تشير إلى هذا المنزع فيقال : "ثلاثة لا أمان لهم : والسلطان والبحر والزمان" ، وقالوا : "جاور ملكا أو بحرا"(١٣).

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فالشاعر الأندلسي "ابن رشيق القيراوني" المتوفى (٤٦٣هـ) يكشف عن الرهبة من البحر ، ويؤكد أنه صعب الركوب والمصادقة ؛ لأنه عالمه يختلف اختلافا كبيرا عن عالم البشر فهو ماء ونحن طين ، وللماء قدرة على إذابة الطين وتبديده ، يقول ابن رشيق :

البحر صعب المذاق مر ... لا رجعت حاجتي إليه

أليس ماء ونحن طين ... فما عسى صبرها عليه[١٤]

ويوضح "ابن خفاجه الأندلسي" عالم البحر الرواغ ، الذى لا تؤمن عواقبه ، فهو لا يؤخذ بظاهره ، وكل معطياته تتسم بالخطر والأهوال ، والرزق الذى يقدمه لنا إنما هو عكس ما يرتجيه الإنسان فهو مر وكدر يشبه ماءه ، يقول ابن خفاجه :

يا مادح البحر وهو يجهله ... مهلا فإنني خبرته علما

فائده مثل قعود بعدا ... ورزقه مثل مائه طعما[١٥]

(٢) البحر "رحلته ، وصفه" :

يأتي المحور الثانى مجسدا فى وصف الشعراء للبحر ورحلته ، وهو لا يتجاوز الأبيات المفردة ، فذكره يأتى متناثراً ، لا يتحقق فى تجربة كاملة ، وهذا يرجع إلى "أن شعور الرهبة كان مسيطرا وراجحا على الطمأنينة ، إذ سرعان ما تجف القلوب وتخفق ، ويسدل الستار على لوحة البحر الفنية"[١٦].

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن أبيات الوصف التي تصور البحر وعالمه في الشعر الأندلسي قول "ابن خفاجه" الأندلسي المتوفى (٥٢٣هـ) الذى يرصد حركة أمواجه المتلاطمة واصطخابها وتوترها فيقول :

ولجـــة تغـــرق أو تعشـــق فمـــا تنـــى احشـــاؤها تخفـــق

شـــارفتها وهـــى بمـــا هاجهـــا مـــن الصبـــا مزبـــدة تقلـــق

فخلتنـــى فـــى شـــطها فارســـا قرب منـــه فـــرس أبلـــق[١٧]

ويصف الشاعر الأندلسي رحلته في البحر وما فيها مـــن أهـــوال وصعوبات ، لكنها تبدو سهلة والبحر وهينا ويسيرا ، حينما يكون الأمـــل معقودا ، وصاحبه معبأ بالانتظار والخلاص ، "فأبو عبيد البكرى" يرســـم صورة الرحلة البحرية وقد أصبحت مرتبطة بانتظار الزلال والشهد ، بعد أن يقوى ويصبر على أجاج البحر وتقلباته وأهواله وأخطاره :

يهون علينا مركـــب الفلـــك أن يـــرى

محيا العـــلا لمـــا نـــاب مركـــب الجـــرد

فجزنا أجـــاج البحـــر نبغـــى زلالـــه

وذقنا جنى الشريان نبغى جنـــى الشـــهد

وإذا كانت الأبيات السابقة قد عبرت عن ارتباط البحر بالمدح لذى الشعراء فإن هناك ارتباطاً يقوم على الرثاء أو اللوم والعتاب ، ومنه قول "ابن حميدس" الذى سيطرت عليه روح التشاؤم "حتى شق عليـــه ركـــوب البحر وهو ذو النشأة البحرية"[١٨] ، يخاطب البحر خطابا وجدانيـــا معبـــأ باللوم والعتاب :

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أقول للبحـــر إذا أغشـــيته نظـــرى ما كدر العيش إلا شـــربها كـــدرك

هلا كففت أجاجا منك عـــن أشـــر من ثغر لمياء لـــولا صعفهـــا أســـرك

هـــلا نظـــرت إلى تقتـــير مقلتهـــا إنى لأعجب منه كيف ما سحرك؟[١٩]

(٣) معارك الجهاد البحرية :

وفيه نجد إيجابية واضحة بين الشعراء والبحر من خلال صـــور التفاعل مع الحياة والإقبال عليها دون وجل أو رهبة من البحـــر "ونجـد صورة البسالة والبلاء تملأ الأفق ، وهو ذو صلة متينة بالحياة السياسية ، وقد اعتنى حكام الأندلس بحماية ثغورهم البحريـــة المواجهـــة للبحـــر ، والجزر التى ظلت سيادتهم عليها"[٢٠]. ومن القصائد التـــى مثلـــت هـــذه الصورة – التى سيطرت مكانيا على مساحة أكبر من المحورين السابقين حيث وصف المعارك قد هيمن على قصائد كاملة وأبيات عدة – قصـــائد "ابن دراج القسطلى" وقد صور فيها معركة بحرية بين المنصور بن عامر وعلى زيدى بن عطية ، حيث انتصر الأول ، فيقول واصفاً أسطوله فـــى عالم البحر :

تحمل منه البحر بحـــرا مـــن القنـــا يـــروع بهـــا أمواجـــه ويهـــول

بكـــل معـــالاة الشـــراع كأنهـــا وقد حملت أســـد الحقـــائق غيـــل

إذا سابقت شأو الريـــاح تخيلـــت خيولا مـــدى فرســـانهن خيـــول

أراقم تقـــوى نـــاقع السـم مالهـــا بما حملت دون الغـــواة مقيـــل[٢١]

نلحظ أن البحر من أكثر عناصر الطبيعة تأثيرا فى نفوس الشعراء القدامى خصوصا فى شعر الأندلسيين ، حيث البيئة الزاخرة بمفاتن شـــتى

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من بينها البحر ، الذى أغرى كثيرين بجماله وعالمه "فحاولوا أن يسبروا غوره ، ويبلغوا مداه فى أشعارهم ، إلا أنهم سرعان ما شعروا بعجزهم وإخفاقهم إزاءه ، حين حالوا أن يتحدثوا عن أبرز ملامحه ، وذلك العسر وتلك الصعوبة ناجمان من اجتماع الأضداد فيه ، والتقاء الصفات المتناقضة فى طبيعته"(٢٢).

أما إذا نظرنا إلى البحر فى "ألف ليلة وليلة" وبالتحديد فى قصة السندباد نجد أنه "هو الغاية التى تنتهى إليها القصة. البحر ممثلها الأول (البروتاجونست) أو أنها حوار بين اثنين البحر وسندباد. حوار يتطور من الهدوء إلى العنف ، ومن تبادل الود إلى تداول الكلمات والمناجزة والصراع"(٢٣).

(جـ) البحر عند الصوفية :

إذا كان البحر قد شغل الشعراء وفتنهم بجماله وعالمه ، وراحوا يتأملونه ، ويصفونه ، وحاولوا جاهدين أن يكشفوا عن أواصر العلاقة معه، فإن الصوفيين كانوا أكثر شغفاً بالبحر ففيه تسبح روحهم الهائمة بحثاً عن الحقيقة ، وتطلعاً إلى النمو والارتقاء والوصول ، فالنفري فى كتابه "المواقف والمخاطبات" يقدم رؤيته لعالم البحر ، حيث يرى فيه المغامرة والمجابهة ، حتى يتحقق الخلاص ، وفى المخاطرة مع البحر تحقيق للنجاة ، وانفلات من السلبية ، وفيه يجتمع الضدان يتمثل فى ظاهره وسطحه الضوء ، أما فى باطنه وقعره فتكمن الظلمة التى تبدد الحياة النابضة ، يقول "النفرى" فى "موقف البحر" :

أوقفنى فى البحر فرايت المراكب تغرق والألواح تسلم. ثم

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

غرقت الألواح ، وقال لى لا يسلم من ركب.

وقال لى خاطر من ألقى بنفسه ولم يركب.

وقال لم هلك من ركب ولم يخاطر.

وقال لى فى المخاطرة جزء من النجاة وجاء الموج فرفع ما تحته وساح على البحر

وقال لى ظاهر البحر ضوء لا يبلغ وقعـــره ظلمـــة لا تمكـــن ، وبينهما حيتان لا تستأمن.

وقال لى لا تركب البحر فاحجبك بالآله ، ولا تلق نفسك فيه فاجيبك به

وقال لى فى البحر حدود فأيها يقلك

وقال لى إذا وهبت نفسك للبحر فغرقت فيه كنت كدابة من دوابه

وقال لى غششتك إن دللتك على سواى[٢٤].

أما البحر عند سلطان العاشقين "عمر بن الفارض" فهـــو الوجـــود الخاص والعالم المدهش ، هو الاتساع والعمق ، والامتداد فى ظل الحب ، فهو عنده بلا شطآن ، له ماؤه الخـــاص وشـــواطىء خاصـــة وأمـــواج وأشرعة، فإذن نزل إليه قوم من جنود الغرام وخاضوا وســـاط أمواجـــه الهادرة فإنهم لا يبتلون فهو فردوسهم ، يقول ابن الفارض :

تعـــرض قـــوم للغـــرام وأعرضـــــوا

بجـــانبهم عـــن صحتـــى فيـــه واعتلـــوا

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تعرضوا بالأمـــان وابتلـــو بحظوظهـــم

خاضوا بحار الحب دوى فمـــا ابتلـــوا[٢٥]

(د) البحر عند الشعراء الرومانسيين :

البحر أبهر الشعراء الرومانسيين بجماله وعالمه وروعته وقوته ، وحظى باهتمامهم ، فهو ملهمهم - بوصفهم شعراء وجدانيين وجدوا فـــى الطبيعة معادلا لحالاتهم النفسية والوجدانية - والنبع الفياض الذى يمدهـــم بالحياة ، يغترفون منه ، ينفعلون معه وبه ، وحين يثورون يجـــدون فيـــه ثورة متأججة مماثلة لثورتهم في نفوسهم ، وحينما يهدؤن يجـــدون فيـــه الهدوء والصفاء الملائم لهدوئهم واستقرارهم.

اتجه الشاعر الرومانسى إلى البحر بشده الغموض ويحيره ، فسعى جاهدا للوصول إلى أسراره ، يغريه سطحه وباطنه ، فشاطئه يوحى لـــه بالخفاء والمجهول. وقد ورد البحر فى الشعر الرومانسى فى صور عـــدة بتعدد الشعراء أنفسهم ، فصورته والموقف منه يختلفان بـــاختلاف حالـــة الشاعر النفسية والاجتماعية أن رؤيته والتعبير عنها ، واصفا غياه وشاكيا إليه أو ثائرا عليه ، "فمطران" يجعل البحر معبرا عن الاضطراب والقلـــق والحيرة ، فهو صدى حالته النفسية المتأججة الحائرة الممزقـــة ، فحيـــن يشكو اضطرابه وحزنه وآلام غربته ، يرد البحر بالرياح الثائرة الهوجاء فى مقابل المد الشعورى الحزين عند الشاعر ، كما أن الشاعر يجـــد فـــى البحر مماثلة لعالمه ، فالبحر خفاق الجوانب ضائق. الطبيعة كلها - فـــى لحظة مع البحر - صارت على شاكلة عالم الشعر ، فهى مغاشة بكدرة ، والأفق سوداوى ، معتكر جريح ، يقول مطران :

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

شاك إلى البحر اضطراب خواطـــرى فيجيبنـى برياحـــه الهوجـــاء
ثاو علـــى صخـــر أصـــم وليـــت لى قلب كهذى الصخـــرة الصمـــاء
ينتابهـــا مـــوج كمـــوج مكـــارهى ويفتها كالســـقم فـــى أعضـــائى
والبحـــر خفـــاق الجوانـــب ضـــائق كمدا كصدرى ســـاعة الإمســـاء
تغشـــى البريـــة كـــدرة وكأنهـــا صعدت إلى عينى مـــن أحشـــائى
والأفـــق معتكـــر قريـــح جفنـــه يغضى على الجمرات والأقذاء[٢٦]

أما إيليا أبو ماضى فهو يرى البحر إنسانا صديقا يخاطبه ويتحدث معه عن قرب ، محاولا أن يصل إلى الشىء الدقيـق الـذى يشـده إليـه ويربطه – فى خفاء – به ، فى الوقت الذى يسعى فيه الشاعر الى طـرح رؤيته وعالمه القلق المغلف بالحيرة ، فيخاطب البحر متسائلا فى مقطوعة عنوانها (البحر) :

قد سألت البحر يوما هل أنا يا بحـــر منكـــا ؟
أصحيح مـــا رواه بعضهـــم عنـــى وعنكـــا ؟
أم ترى ما زعمـــوا زورا وبهتانـــا وإفكـــا ؟
ضحكـــت أمواجـــه منـــى وقـــالت :
لســـــــــــــــــــت أدرى[٢٧].

ويأتى البحر عند الشعراء الرومانسيين رمزا للمجهول بما ينطوى عليه ، من أشياء متناقضة ، "فأبو القاسم الشابى" فـى قصيدتـه (أغـانى التائه) يرى البحر ذا بعد لا متناه ، لذا يسكنه القلق والحيرة والشـك فـى الوصول إلى اليقين :

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يا ابن أمي أترى أيـــن الصبـــاح...؟

أوراء البحر ، أو خلف الوجـــود...؟

يا ابن أمي أترى أين الصبـــاح...؟[٢٨]

لقد كشف الشعر الرومانسي عن موقف الشـــاعر الســـلبي – إزاء البحر – من حيث الشكوى والارتداد إلى الماضي ، والانهزامية ، كما أنه – في سياق الموقف السلبي – يذهب إلى تصوير الرحلة هربا من مسببات الألم ، فالإنسان قد عرف الرحلة وهو يرى فيها بحثا عن الأمل الذي لـــم يجده في بيئته ، والشاعر في هذا الموقف "يشعر بحاجته إلى الفرار مـــن بيئته ، فيختار لنفسه بيئة أخرى يحيا فيها بروحه ، ويحلق فـــي أجوائهـــا بخياله ، ويجد فيما يتصوره من فسيح رحابها متنفسا له وعوضـــا عمـــا ضاق من بيئته التي يحيا فيها ، والتي لم يعد له قبل باحتمالها"[٢٩].

أما صورة البحر التي تؤكد موقفا إيجابيا لدى الشاعر الرومانسي من حيث علاقته بالواقع المعيش – فقد كان فيما سبق مستسلما لمشـــاعر الغربة والضياع والنفور – فإنها تتجسد في القـــدرة علـــى المواجهـــة : مواجهة مشاعره وتحليل مسبباتها ، ومحاولة الوصول إلى مسالك لتفتيتها، والقضاء عليها ، كما في قصيدة "البحيرة" للشاعر "علي محمود طه" الذي يخوض مغامرة المواجهة مع أمواج البحر فيقول :

وليكن فـــي العبـــاب يهـــدر أمـــ واجا على شاطئيك مثل الرعود

في انتحاب الريح تعول في الوديـــ ـــان أعـــوال قلبـــي المفـــؤود

في صـــدى الجـــدول الموقـــع أنـــا ت حشاه بالجندل الجلمـــود[٣٠]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أما إبراهيم ناجى فإنه يؤكد - من خلال أبياته - أن رؤية البحر ترتبط بالحالة النفسية من حيث هدوئها وصفائها أو ثورتها أو حزنها وألمها ، فهو يصرح فى قصيدته (على البحر) من ديوانه (وراء الغمام):

إنى ذكرتك باكيا والأفق مغبر الجبين
والشمس تبدو وهى تغرب دامعة العيون
أمسيت أرقبها على صخر وموج البحر دونى
والبحر مجنون العباب يهيج ثائره جنونى[٣١]

فالحالة النفسية - إن صح التعبير - عند إبراهيم ناجى هى التى شكلت رؤيته للبحر ، والرؤية التى انطلقت من فيض حزنه وأساه ، لذا يرى البحر مجنون العباب ، يهيج ثائره جنونه.

هذه الرؤى المتأججة التى طرحتها النفس الرومانسية - لذى جيل بأكمله - تؤكد ولعها بالطبيعة وعناصرها ، حتى تجد فيها خلاصا مما تعانية ، فالشعراء الرومانسيون عندما يذهبون إلى الطبيعة ويندفعون فى أحضانها وخصوصا البحر فإنهم "ينشدون السلوان فيها ويبثون حزنهم ويناظرون بين مشاعرهم ومناظرهم.. يتخيلون فى المخلوقات أرواحا تحس مثلهم فتحب وتكره فيشركونها مشاعرهم ؛ ولذا يخاطبون الأشجار والنجوم والصخور وأمواج البحار"[٣٢] - فخلعوا عليها كل حالاتهم النفسية- خصوصا البحر. تارة بالخطاب حين اتخذوه صديقا تقدم إليه الشكايا من جراء قسوة الواقع وبطشه ، وتارة بالحديث عنه ، وانشغلوا بجماله واتساعه وعمقه وثورته واضطرابه وسكونه.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمتأمل للبحر – فى الشعر الرومانسى – يجد أن هناك مسافة بين الشعراء أنفسهم ؛ فجاءت جل قصائدهم تقف على أبوابه ، تدور فى فلك الوصف الخارجى ، وإذا دخلت إليه التجربة وتغلغلت فى أحشائه فإنها تتبلور من خلال تقابلات الثورة التى يطرحها الشاعر والرؤية التى يقدمها له ، يحكم هذه العلاقة – فى أغلب الأحيان – بين الشاعر الرومانسى والبحر عوامل سياسية واجتماعية ونفسية ووجدانية ، وكثيرا ما تتجلى هذه العلاقة فى موقف الانسحاب والشكوى والأنين ، واجترار الماضى والرضا بالبقاء فى أحضانه مقابل الحاضر الذى اتسم بالقسوة والصراع.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الشاعر الجديد استطاع أن ينتهك الغلاف الخارجى لرؤية البحر ، واندفع إليه يمارس نوعا جديدا من التأمل والقراءة "فقد تؤدى القصيدة إلى التوفيق بيننا وبين العالم القاسى ، وقد تختلف فى نفوسنا رغبة الفعل بل وفى الثورة ، وقد توحى لنا بمثل أعلى أخلاقى أو توضح لنا فلسفة خاصة"(٣٣).

وقد اختلفت صورة البحر فى الشعر الجديد تبعا لاختلاف الرؤية والموقف "نتيجة لأصالة التجربة وبكارة الرؤية الشعرية على السواء"(٣٤). والشاعر الجديد – من خلال أدواته الفنية وتقنياته – يخلق لنفسه منهاجا خاصا ، يحاول – من خلاله – أن يكتشف موقعه بالنسبة للآخر والعالم ، ولذا "يجذبه الحنين إلى البحر ، الحنين الأبدى ، المبهم ، لا لاستكشاف البحر نفسه – وإن بدت لنا المغامرة فى ظاهرها استكشافا لعالم البحر – ولكن لاستكشاف الذات"(٣٥). وفى هذا يتضح اختلاف موقف الشاعر الجديد عن موقف الشاعر الرومانسى ، فالأخير يستسلم ، يعتصره الحزن، وتؤرقه الشكوى ، ويقض مضجعه الأنين ، أما الأول فهو لا "يكاد يدخل إلى عبابه حتى يتقاذفه الموج ، ولكنه لا يستسلم له ، فمازالت يده فى كل لحظة تمسك بالدفة ، وما يزال يحتال – فى لحظات المواجهة – مستغلاً كل ذكائه وخبرته وكل طاقاته ، حتى يشق لنفسه طريقا وسط هذا الموج الهادر"(٣٦).

يستطيع القارىء المتأمل فى الشعر الجديد أن يتبين صورا عدة للبحر يطرحها السياق ، وتختلف باختلافه ، فمنها :

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

(١) البحر / الانتظار / الخلاص :

يعلق الشاعر الجديد على البحر آمالا كبيرة ، لأنه يرغب في تغيير واقعه – الذى اتسم بالثبات والسكون والسلبية – إلى النقيض. والبحر ملاذ لهذا التغيير ، ومن هنا ارتبط بظاهرة الانتظار ، التى تملأ نفس الشاعر المتعطش للخلاص ، ففى قصيدة "وتسألنا" لملك عبد العزيز ، يأخذ البحر صورة الانتظار الذى سيتحقق فى مده الإيجابى :

وتسألنا.

لنبقى الدر فى الأصداف.

نبقى فى قرار البحر ننتظر

عسى يوما يجى المد ،

يجذبها من القيعان ،

يطرحها على الشطئان.

...

هل عاهدت مد الموج أن يأتى

وهل ما طاف إلا فى شواطئنا

وما غنى

لغير ربوعنا

ما اشتاق إلا أن يعانق رملنا

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الظمان

يذوب فيه

ويسقيه

ويأخذه ويعطيه ؟[٣٧].

استخدمت الشاعرة فى صياغة انتظارها بنية الاستفهام ؛ ليطرح النص دلالة القلق والحيرة والشك فى جدوى الأمل والانتظار ، وإذا كامن الموج – فى رمزيته – يشير إلى التتابع والحركة والسرعة ، فإن البنية اللغوية تؤكد هذه الدلالة ، حيث اقترن الاستفهام بالفعل : هل عاهدت – يأتى – وهل ما طاف ، ثم أفعال المضارعة : يعانق – يسقيه – يأخذه – يعطيه.

كما يقترن البحر بالانتظار عند "حميد سعيد" فى قصيدته "الحضور" التى يهديها إلى الثوار الذين يعبرون صوب بيوتهم فى فلسطين، فالبحر لديه انتظار لثورة قادرة على تحطيم الثوابت العظيمة ، التى تخلق أفقا جديدا ، وعالما رحبا مغايرا ، يتسم بالاخضرار والنمو على الرغم من انطلاقه من رحم الموت لأن الموت حياة :

وهذا كان بيت أبيك

وأنت الذى كنت انتظر

إن رائحة الأرض ملء ثيابك

فى صوتك البحر..

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فى مقلتيك الدوالى التى سرق منها الجند فرخها

فى ثيابك أبهة الموت

الذى كنت انتظر

وهى تنتظر.[٣٨]

ويأتى انتظار البحر عند "صلاح عبد الصبور" وسيلة للتحقق والتوحد ، غير إنه توحد يتسم بالحيوية والحركة والتتابع الثنائى المتداخل، ولذا يأمل الشاعر ومحبوبته لو أنهما جزءا من البحر / "موجتان" صيغتا من الرمال والمحار ، تجنحان للديمومة والخلق وأسلمتا العنان للتيار ، فهما على اليقين بالقدرة على المواجهة والتحدى إلى الأبد ، وفى ذلك تكمن سعادة العاشقين / الموجتين ، فكأن البحر الغاية التى يسعى إليها عبد الصبور ومحبوبته ليكونا معا فى رحابه وبين أحضانه ، فهو لا يضن عليهما أبداً ، وهذا انتظار الفارس القديم وأحلامه :

لو أننا كنا بشط البحر موجتين

صيغتا من الرمال والمحار

توجتا سبيكة من النهار والزبد

أسلمتا العنان للتيار

يدفعنا من مهدنا للحدنا معا

فى مشية راقصة مدندنة

تشربنا سحابة رقيقة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تذوب تحت ثغر شمس حلوة رفيقة

ثم نعود موجتين توأمين

أسلمتا العنان للتيار

في دورة للأبد

من البحار للسماء

من السماء للبحار[٣٩].

البحر هو رغبة لتحقيق التوحد ، هو الخلاص عند الشاعر الجديد، بل إنه التوأمة والتداخل والانصهار بين العاشق والمعشوق ، فإذا كان الشاعر الرومانسي قد لاذ بالفرار من البحر خوفاً منه ومن سطوته ، وشعورا منه بوحدانيته أمام العالم ، فإنه الشاعر الجديد يرى البحر ذاته وقد امتزجت بذات المحبوب ، بل إن البحر بكل ما فيه يشابه كل ما في المحبوبين من معطيات ، هذا الملمح تؤكده الشاعرة "وفاء وجدي" في قصيدتها "يجمعنا البحر" حيث تقول :

حين تظل بأعماقي

وأظل بأعماقك

يجمعنا البحر

يصبح لون الأعين

خلجات الأجفان

صخب الوجدان

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بحر أضاءت فى الشطآن

وأنا والزورق والربان

يجمعنا البحر

حين تصير الكلمات شجنا مهموس النبرات

يصبح عمرانا لحظة

يجمعنا البحر

يطفو الشجن الداكن من عمق الأعماق بسرى فيشف إلى الآفاق

يصبح لون سمائنا قزحيا فيه تختلط البسمة والدمعة والأشواق

يصبح فى عمق البحر

حين تصير النظرة شغفا

والهمسة رجفا

وتصير اللمسة عزفا

يغرقنا فيض النعمة

يجمعنا البحر(٤٠).

فالبحر عند "وفاء وجدى" هو المخلص والمطهر العظيم الذى يستطيع أن يجمع المحبوبين – فى ظل حالته الجميلة الإيجابية ، يصب عليهم ماء التوحد – فى المواقف التى تتسم بالسعادة ، فالبحر حبيب

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يخلصها ولا يتركها وحيدة في مواجهة العالم ، بل يشاركها ويجمعها داخله، ليفيض عليها طهارة وعشقا.

(٢) البحر الليل / الليل البحر :

في هذه الصورة يتداخل البحر مع الليل – في سمته المظلم المخيف– في كثير من قصائد الشعراء المعاصرين ، وهي صورة قديمة عرفها الشعر العربي القديم ، كما في معلقة "امرىء القيس"[٤١] الذي يؤكد أن هناك تشابها – في الظلمة والصعوبة والتوجس والتتابع والانتشار والاحتواء – بين البحر والليل ، كما تؤكده هذه العلاقة – التداخل بين الليل والبحر – في الخطاب القرآني في مواقع عدة[٤٢].

ورؤية التداخل بين الليل والبحر عند الشاعر الجديد نابعة من موقفه النفسي تجاه عوالم المعيش ، حيث اشتداد الظلمة النفسية والحيرة والقلق ، وفقدان اليقين ، وعدم جدوى الأشياء – أحيانا – واشتداد البطش السلطوي ، ففي قصيدة "الليل" "لكمال نشأت" يتجسد البحر في صورة قاحلة مظلمة ، حيث تنتشر أوجاع الشاعر وآلامه ، وتتحول في الليل إلى تنين يمارس سطوته ضد الشاعر ، في الوقت الذي تطمح فيه روحه إلى الحركة والأمان ، لكنه البحر المشابه لليل يتخلله ويذوب كل منهما في الآخر :

في الليل الغافي تنتفض الأوجاع

تتحول تنينا وزوابع

والروح شراع

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أو بالتنين المحرق[٤٧].

وموقف صلاح عبد الصبور يقترب من موقف الشعراء الرومانسيين من الطبيعة عامة والبحر خاصة ، حيث يندفعون إليها رغبة في نشدان السلوان ، ويقيمون مع جزئياتها حديثا ينضح بالأسى والانكسار لعلها تشاركهم همومهم وأحزانهم ، فهى الصديق الذى يرون فيه الخلاص.

(٢) الصراع الذى تعانى منه الذات وحيدة فى مواجهة العالم :

وهذا الصراع الذى يدور بين الذات والعالم صراع غير متكافىء، لأن الحياة تتسم بالقوة والبطش والصلابة ، فهى بحر متلاطم ، ثائر ، قهار ، لا يرحم ، والفرد فى داخله طفل لا يقوى على مجابهة الأخطار ، فيعلن الشاعر أنه لم يعد قادرا على مواجهة تحديات الواقع ، إضافة إلى صورة القلق التى تحيط به ، فالشاعر "عبد اللطيف إطيمش" يرى فى مواجهة البحر / العالم تدميرا للذات ؛ لأن البحر له قدرة الإغراق والاحتواء ، فيؤكد فى قصيدته "نداء البحر" :

ورحت توسع بينى وبينك

طول المسافة كيما ترانى

وحين وصلت إلى شاطىء البحر

خوضت فى الموج.. ،

كان وراءك أفق من السفن المشرئبات ،

مثل المنائر وهى تلوح ،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مثل الغريق

نوغلت في البحر مبتعدا.. ،

شأن من يكشف السر في البحر ،

واجهك البحر شيئا فشيئا ،

وغطاك للساق ، فالصدر ، فالرقبة

فزعت.. ، تيبست كالخشبة

وصرت تلوح لي من بعيد

وناديت.. كدت ارد النداء ،

ملوحاً بقميصك

ولكنه انطبق البحر ،

مثل انطباقة جفني ،

فوق عيوني التي انتظرتك طويلا[٤٨].

(٢) العودة إلي الماضي واستدعاء ذكريات البحر :

في هذا الموقف يقف الشاعر بعيدا عن الواقع ، ويصبح الماضي بديلا عن الحاضر بتحدياته وآلامه ، ومن هنا تستدعي ذاكرة الشاعر وخياله الماضي ويقوم بتشكيله في صورته الناصعة في مقابل الحاضر الذي يتسم بالألم والبغض والقسوة ، وتصبح صورة البحر - في هذا السياق - فجزئياتها المتعددة : الساحل ، والشاطىء ، والأمواج ، والشراع.. ، عناصر شاركت الشاعر في ماضيه الممتع الذي افتقده ،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فالبحر وحقوله – فى قصيدة "عن البحر والحب" لعادل السيد عبد الحميد ، يشارك الشاعر فى ارتداديته للماضى ، ويكشف ملامحه المشرقة ، وفى مقابل التمزق والضياع والجرح :

وكنا..

نخاف من العابرين

نحلم أن الرحيل وطن

يشاركنا البحر غربتنا كى نغنى

فنسلم أعيننا للبكاء على صدره ،

ثم نمشى على شاطئيه

.. كأن التقينا أخيرا[٤٩].

يتميز الموقف السلبى فى الخطاب الشعرى الجديد عنه فى الخطاب الشعرى الرومانسى الذى يتبلور من خلال السلبية التامة والسكونية والإنهزامية ، والتسليم لفرضيات الواقع ، فلم يصبح موقف الشاعر الجديد موقف النجوى والنحيب والانكسار الذى يصل إلى درجة المرضية. وهذا الموقف الجديد يرجع إلى طبيعة الواقع المعاصر بكل تحدياته وطموحاته الفاعلة الذى يفرض على الشاعر موقفا جديدا ، ينبثق من الحركة والديمومة ؛ حتى يشق لنفسه طريقا فى هذا العالم المتلاطم ، المسكون بالمتناقضات ، ويحقق لذاته قدرة على الحياة فى صورتها المشرقة ، ومن هنا يتبلور لدى معظم الشعراء موقف يتسم بالإيجابية.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ثانياً : الموقف الإيجابى :

فى هذا الموقف يبدو الشاعر أكثر إيجابية وفاعلية فـــى علاقتـــه بالواقع المعيش ، فبعد أن كان النفور والانهزام والاستسلام لمشاعر الغربة والضياع ، والتقوقع أمام قسوة الحياة ، بدأت تظهر فى ســـماء الشـــعر – معانى الخوض والنفاذ إلى الأعماق . وقوة المواجهة مع البحر وأمواجه– فمحمد إبراهيم أبو سنه فى قصيدته "البحر موعدنا" يؤكـــد علـــى الثـــورة والاقتحام والمجازفة والتمرد ، لأن هذه الفاعلية لا غنى عنها مـــن أجـــل تحقيق وجود للذات فى مواجهة البحر / العالم المدمر ، الذى لا يرحم من يتراجع أو ينحاز إلى التقهقر ، خصوصا وأن الشاعر يرى أن الأشياء فى عالمه تحولت إلى نقيضها :

البحر موعدنا

وشاطئنا العواصف

جازف

فقد بعد القريب

ومات من ترجوه

واشتد المخالف

لن يرحم الموج الجبان

ولن ينال الأمن خائف

القلب تسكنه المواويل الحزينة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمدائن للصيارف

خلت الأماكن للقطيعة

من تعادى أو تحالف ،

جازف ولا تأمن لهذا الليل أن يمضى

ولا أن يصلح الأشياء تالف

هذا طريق البحر

لا يفضى لغير البحر

والمجهول قد يخفى المعارف

جازف

فإن سدت جميع طرائق الدنيا

أمامك فاقتحمها. لا تقف

كى لا تموت وأنت واقف(٥٠).

هذا الموقف – فى حضرة البحر – يبدو إيجابيا فاعلا فى مواجهة الواقع الذى يكشف عن ملامح عدة من المجازفة والمغامرة والمخاطرة والثورية والاقتحام.

ولويس عوض يرى فى هذه المجازفة – عند "أبو سنة" – مماثلة لدور كبار المغامرين والمكتشفين فيقول : "هذه الدعوة إلى المجازفة والاقتحام فى وجه العواصف وأمواج المحيطات ، تذكرنا بما كان يفعله كبار المكتشفين مثل كولومبس وماجلان ، وأمريجو فسبوتشى وبارنولو

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ميوديار الذى مخروا العباب فى بحر الظلمات – أى المحيط الأطلسى – كما كانت العرب تسميه ، ليصلوا إلى الأرض الجديدة وينهبوا كنوزها. وهذا عين ما كان يفعله المغامرون مثل كورتيز والسير ولتر رالى والسير فرانسيس دريك وكبار القراصنة ، كانوا يقتحمون الأمواج.. والعواصف العاتية بحثا عن أرض جديدة يعمرونها أو عن سفينة ينهبونها ، فهناك دائما هدف كبير وراء ركوب الأخطار الكبيرة"[٥١].

ورغبة محمد إبراهيم أبو سنة الجارفة للخروج والاقتحام والمجازفة وسط غمار الاحباطات المتوالية جعلت القصيدة فى بنائها الفنى تتخلى عن تقنيات فنية كان يمكن أن تؤدى دوراً حيويا للقارىء وتكشف رؤية الشاعر فى إطار فنى يلتحم فيه الشكل بالمضمون "وعلى قدر التحام المضمون بمهام اللحظة التى يصورها وبآمالها الإنسانية العظيمة ، يعكس الشكل أيضاً مغامرة فنية جديدة تعبر عن اللحظة المعاشة بكل خصوصيتها وتفردها"[٥٢] "فأبو سنة" استخدم لغة خطابية زاعقة تعددت توترها وانسيابها.

ويؤكد الشاعر محمد محمد الشهاوى موقفه الإيجابى من البحر فى قصيدته "للشعر وجه البحر.. وجه الحلم" فلأن البحر له وجه الحلم والحلم له وجه البحر يطلب من محبوبته الحركة الفاعلة كى تنطلق فى كل الجهات من غير خوف أو استسلام كالسفينة التى لا تهاب الزبد وتعانق الأبد ، وتجتاح كل عالمه بما فيه عالمه الشعرى العميق :

للبحر وجه الحلم

فانطلقى إلى كل الجهات

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

سفينة لا ترهب الزبدا

للحلم وجه البحر

فائتلفى مع الأحلام

إيلاف اللألى للمحار

وعانقى الأبدا

للشعر وجه البحر

وجه الحلم

وجه المطلق الكونى

فاتحدى بأمشاج القصيدة

لحمة

وسدى[٥٣].

ويطرح الشاعر سعدى يوسف موقفا يتميز بالإيجابية ، حيث مواجهة الواقع وتفتيته وتحويله إلى واقع أكثر إشراقا ونضارة ، خصوصا وأن البحر له قدرة التغيير الثورة الجذرى ؛ فيُطلب من البحر أن يمنحه شيئا من أعماقه ، وأن يحتويه ؛ فيصبح شارة للشوق ، أن يرد إليه تمرده واخضراره ، وقدرته على الرفض ، أن يطهره ، يجلو رؤاه ، ويقضى على كل ما يعوق مسيرة الانطق والحيوية ، يقول فى قصيدته "ترتيلة للبحر" :

يا بحر من بستانك الصدفى امنحنى محاره

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مرجانة ، شيئا من الأعماق ، لونا غير لؤلؤتى المعاره

يا بحر أغرقنى ، وأغرقنى ، وأغرقنى

أكن للشوق شارة

هبنى ولو لمحا من الرؤيا

خذ كل ما أعطيتنى الدنيا

اجعله قبرا لى واسدل فوق حبى ستاره

يا بحر يا افقا بلا دنيا

أمسى أرتجيتك أن ترد إلى تمردى اخضراره

أن تغسل الأ.ام تضحيها الحقيقة والنضارة

أن تجلو الرؤيا بعينيا

وتكون لى شفتين من حلم وكفا من غزارة

وتعيد لى أعماقى العليا

واليوم جئت إليك وجهى فى جبينك وارتمائى

فى صدرك المغبر ،

أبحث فى مراياك الهشيمة عن سمائى[٥٤].

وتأتى صورة المرأة وعلاقتها بالبحر من المواقف الإيجابية بوصفه شطا للأمان وسط مجموعة من العواصف ، وكثيرا ما يخلع الشعراء عليها صفات الحسن والجمال ويصبح البحر كذلك آنذاك. ومنها

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

جعل الشاعر الحديث صورة للحياة والوجود "وصراع الإنسان فى وسطه رحلة لابد منها ، تتوقف نتيجتها على مدى تحمل الإنسان وصموده أمـــام التحديات المتجددة التى تبرز أمامه ف ركل لحظة أثناء رحلته"(٥٥).

فالبحر عند عبد المنعم رمضان امرأة متوهجة جميلـــة ، تملؤهـــا رغبة الانتظار الإيجابى ، فيقول فى قصيدته (نشيد الإنشاد) :

ورأيت قريبا من قلبى

عينين كمئذنتين

رأيت قريبا منه خباما كانت للرعيان

تطل على أعشاب البحر

وكان البحر جميلا

مثل امرأة

تعرف أن الرجل سيأتى قبل الموعد

يرفع عنها الشال(٥٦).

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ملاحظات واستنتاجات

أولاً : البحر / حقوله / ودلالاته :

عندما يأتى البحر فى قصائد الشعراء المعاصرين فإن حقوله تكشف عن نفسها فى النص البحرى ، فهى ترسم الصورة الكلية لعالم البحر وعلاقة الإنسان به ، ومن خلال دراستنا لعالم البحر نلحظ شيوع بعض المفردات ذات الصلة الوثيقة بالبحر ، فهى جزء منه ، وقد أخذت هذه الألفاظ اتجاهين من حيث الدلالة :

الاتجاه الأول :

ويتمثل فى الألفاظ ذات دلالة إيجابية ، ترتبط بالوجه المشرق لعالم البحر مثل : الشاطىء ، الشراع ، الميناء ، الساحل ، المنائر ، الزوارق ، المرفأ... ، وقد وردت هذه المفردات فى الشعر العربى الحديث بدلالتها الحقيقية والمجازية ، فى الوقت الذى نؤكد فيه من خلال دراستنا للبحر أن الاستخدام المجازى لهذه المفردات يوسع مجالاتها الدلالية ، ويفتح طاقاتها الإيحائية ، وتمنح النصوص التى وردت فيها سمات خاصة :

الشاطىء :

وهو جزء من طبيعة البحر أو البحيرة المقابل لحيز الماء ، والشاطىء بالنسبة للبحار يعنى السلامة والأمان والوصول بعد عناء الرحلة ، وللغريق النجاة من الموت ، وهو عند الشاعر الرومانسى يدل على الماضى الذى يتمنى عودته ويتوق إليه ويقترن بألفاظ الرؤيا والأحلام والهناءات. والشاعر الجديد يلجأ إليه حين تضيق عليه الجهات ، وتفتك به الأخطار والأهوال ، وينتابه القلق والتوتر ، ويقسو عليه الواقع ببشاعته

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وبطشه ، فالشاعر رضا العربى يستخدم الشاطىء بهذه الدلالة فيقول فـــى قصيدته "خروج" :

أنت صادقتك بحرا

وقلت أفتش عن لؤلؤ

ما احتواك ،

وخاصمك الموج ،

والملح حفك ،

فانظر لما قدمته يدك

إنه لا يعهدك

خائن إنه البحر

ليت ما جئته

فاصعد الآن نحو الشواطىء[٥٧].

المرفأ :

وهو من حقول البحر التى ارتبطت دلاليـــاً بالنجـــاة والاطمئنـــان والسكينة ، وقد ترددت هذه المفردة كثيرا فى قصائد الشعراء المعاصرين فاحتلت جزءا من قصيدة أحيانا ، وأحيانا أصبحت محورا لقصيدة كاملة ، فالشاعرة ملك عبد العزيز استخدمت المرفأ عنوانا لقصيـــدة ، والمرفـــأ – كما تطرحه القصيدة – حيز تتوق إليه النفس لترتاح من العناء والمكـــابدة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمواجهة من التيارات المتلاطمة ، إليه تهفو الروح ، ويورق فى جنباته الحلم ، ويشرق الغد المأمول :

لم يزل فى الموانى البعيدة

مرفأ

تسكن الروح فى شطه

تستريح السكينة

يروق الحلم فى ظله

وتذوب الضغينة

ويضىء الغد[٥٨].

السفينة :

يرتبط المدلول الحقيقى لهذه المفردة بالتنقل والسفر والرحلات إلا أنها تعددت دلالتها فى النصوص الشعرية ، فهى أحيانا تأتى دلالة على الحياة ، وأحيانا دلالة على الرحلة والنجاة ، أو الرؤية. وتأتى دلالة على الحلم كما فى قصيدة (أغنية البحر) لوفاء مجدى :

سفينت أطلقتها

من بعد ما دشنتها بعمرى الذى مضى

وبعدما تحركت فى أعماقها

بقية من السفين

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

إن كان لى بقية

أنفقت فى بناء هذه السفينة

أخشاب غابتى التى تحجرت

وكنت قد سويت من فوق الغصون

جميع ما ادخرته من الجليد

وحينما أردت إطلاق السفينة

رجفت كى أزيح أكوام الجليد

سفينتى تسير فى غير اتجاه

تدور حول نفسها[٥٩].

الاتجاه الثانى :

ويتمثل فى الألفاظ ذات الدلالة السلبية ، التى ترتبط بالوجه المظلم لعالم البحر ، ومن هذه المفردات : الأمواج ، الظلام ، الرياح ، العواصف، الأنوار ، المحار ، الرمل...

الموج :

يتضح البعد الدلالى لهذه المفردة تبعا لهيئتها ، فإذا كانت ساكنة هادئة فإنها ترتبط دلاليا بالسكون والاطمئنان والأمن ، أما إذا كانت متحركة عاتية فإنها رمز الثورة على الألم ، على الواقع ، فالشاعر حسن فتح الباب يستخدم هذه المفردة فى تناقضها الدلالى ، حيث الموج الوادع الهادىء ، والموج الغاضب الثائر يقول فى قصيدته (حوار على الموج) :

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يسألني الموج الوادع عن عينيها

.. والبحر الصاخب بين حناياها

.. حين يغيم الليل

.. ويسألني الموج الغاضب

.. فيعاجلني السهم

.. فأرتد حسيرا منزوفا

.. تسلمني الأصداء إلى الحزن الأبدى[٦٠].

المحار :

من حقول البحر الدالة - كثيرا - على الانهزام وعدم تحقيق فاعلية إيجابية ، فهى مرتبطة بالحواء ، وقد كثر ترددها فى الخطاب الشعرى الحديث فى حالات مواجهة الواقع ، التى تسفر عن سلبية مواجهة النتيجة والتمزق والألم والحسرة والزيف ، كما يشير عبد المنعم عواد يوسف فى قصيدته (بينى وبين البحر) حيث يقول :

أخاف لست السندباد ، يقودنى عشق إلى

تلك البحار ،

إلى مجاهلها ، يعود محملا بالغار ،

حين أعود ، لو سأعود ، أرجع لست أحمل

غير أصداف المحار ،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أعود يقتلني الغثاء ، أعود يشطرني التمزق[٦١].

ثانياً : ظاهرة التكرار :

يلحظ الباحث أن الشعراء المعاصرين – فى قصائد البحر – يستخدمون تقنية التكرار ، ويكون التكرار لمفردة بعينها من حقوله ، – كما أسلفنا – أو يلجأون إلى تكرار عبارة معينة ، مستمدة من البحر أو عناصره ، وهم فى ذلك يرغبون إثراء الطاقة الإيحائية ، أو تلبية لرغبة نفسية ملحة ، "والتكرار من الوسائل اللغوية التى يمكن أن تؤدى فى القصيدة دورا تعبيريا واضحا ، فتكرار لفظة ما أو عبارة ما يوحى بشكل أولى بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره ، ومن ثم لا يفتأ ينبثق فى أفق رؤياه من لحظة لأخرى"[٦٢].

ولكى يقوم التكرار بوظيفته التعبيرية فى القصيدة ويؤدى دورا فاعلا ، لابد أن يكون العنصر المكرر ذا طاقة إيحائية ، يتمكن بها من أن يدخل فى النسيج اللغوى فى كل مقطع ، ويكون – فى الوقت نفسه – ذا صلة وثيقة بالبناء الكلى للنص. فقد ورد التكرار فى الشعر الرومانسى الخاص بالبحر يكشف عن منزعين : التأكيد على الفرحة التى تسعد الشاعر بالرجوع إلى البحر ثانية ، ولبيان مدى الحيرة التى يعانى منها الشاعر المشتت بين الماضى والحاضر ، كما وردت فى قصيدة (الطلاسم)[٦٣] لإيليا أبو ماضى حيث كرر جملة (لست أدرى) الدالة على الحيرة. وفى الشعر الجديد قامت الشاعرة وفاء وجدى فى قصيدتها (أيجمعنا البحر) بتكرار هذه الجملة عنوان القصيدة أربع مرات ، وهذا يؤكد أهمية العنصر المكرر داخل القصيدة ، فهو المحور الرئيسى الذى

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تنطلق من خلاله رؤية الشاعرة ، وتستقطب شعورها ، فى نقطة مكثفة هى (يجمعنا البحر)[٦٤] ، لتؤكد الفرحة الغامرة التى تنتابها إزاء فعل الجمع.

وفى قصيدة (عاصفة) لملك عبد العزيز تتكرر جملة (يغرق الليل فى البحر)[٦٥] لتؤكد على مدى التداخل الظلامى بين البحر والليل واستمراره فى ديموميته ، وتؤكد نفور الشاعر الرؤياوى النفسى من هذه الظلامية.

أما فى قصيدة (البحر موعدنا) لمحمد إبراهيم أبو سنة فسيأتى التكرار للفعل (جازف)[٦٦] تأكيدا وإلحاحا من الشاعر على فعل المغامرة والمجازفة ، وفى يقينه بأن هذه المغامرة هى الورقة الوحيدة التى يلوح بها فى وجه هذا الـ

الذى يتسم بالصلابة والبطش ، فالخروج وسيلة للتحقق وأداة من أدوات الفعل الإيجابى.

كما يلحظ الباحث تكرار حقول البحر التى ترتبط بالوجه المشرق وحلم الشعراء[٦٧] وكلها مفردات تؤكد رغبة الشعراء الجارفة فى خلق حياة أكثر إشراقا واخضرارا.

أما تكرار حقول البحر – المرتبطة بالوجه المظلم – فإنه يؤكد الرغبة الجارفة فى الثورة والتغيير والرفض والمواجهة والمجازفة فى الوقت الذى تكشف فيه هذه المفردات ملامح الواقع المعيش وضبابيته.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وقد جاءت اللغة التى استخدمها الشعراء فى بناء قصائدهم ، تماثل لغتهم فى غير موضع البحر ، فقد جاءت فى معظم القصائد لغة إنسابية تميل – أحيانا – إلى الإيجاز والتكثيف فى بنيتها وتركيبها مثل قصيدة (عاصفة)[٦٨] ، وأحيانا تميل إلى الإطناب والاسترسال كما فى قصيدة (الخبر)[٦٩].

أما فى موقف المواجهة والالتحام فالبحر دلالة على الثورة فقد تميزت اللغة بالتكثيف الشديد والثورية ذات الصوت الحاد كما يتضح فى قصيدة (البحر موعدنا)[٧١] ، و(حديث البحر)[٧٢].

أما من حيث الوزن والإيقاع فقد استخدم الشعراء المعاصرون البحور الصافية ذات التفعيلة السريعة فقد تعرض البحث لعشرين نصا جديدا جاءت تردد الأبحر العروضية كما يلى : (المتدارك ٤٠٪ ، الكامل ٢٠٪ ، المتقارب والرجز ١٠٪ ، الوافر والبسيط ٥٪) فانتشار تفعيلة (المتدارك – فعلن – فعلن – وتفعيلة الكامل متفاعلن ، وأحيانا متفاعلن ، تشير إلى السرعة وتكشف عن التوتر المتصاعد والمتلاحق السريع ، وتؤكد تموج الحالات النفسية بين المد والجزر المماثل للمد والجزر البحرى. ويتشابه هذا الاستخدام لهذه الأبحر – خصوصا المتدارك– مع نصوص الشعر الجديد بصفة عامة التى تتشكل إيقاعيا من خلالها.

نأمل أن تكون هذه الإطلالة قد ألقت الضوء على صورة البحر وجمالياته فى الشعر العربى الحديث فى شىء من الإيجاز ، فالظاهرة تحتاج إلى دراسات موسعة ، كما نأمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة فاتحة الطريق لدراسات أكثر اتساعاً وإحاطة للظاهرة فى شتى تجلياتها.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هوامش البحث

١- أحمد محمد عطية : أدب البحر ، القاهرة ، دار المعـــارف ١٩٨١م ، صـــ ٥-٦.

٢- السابق ، صـــ ٧.

٣- السابق.

٤- د. مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشـــعرنا القديـم ، بـــيروت ، دار الأندلس ١٩٨١م ، ط٢ ، صـــ٦٩.

٥- أحمد محمد عطية : أدب البحر ، صـــ ٧.

٦- أدونيس : زمـــن الشـــعر ، بـــيروت ، دار العـــودة ١٩٧٢م ، ط٢، صـــ١٦٠.

٧- شرح المعلقات السبع للزوزنى ، صـــ ٣٥- ٣٦.

٨- السابق : صـــ ٢٠- ٢١.

٩- الأصمعى : الأصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، وعبـــد السلام هارون : القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٦م ، ط٤، صـــ١٦٦.

١٠- د. حسين جمعة : البيئة الطبيعيةفى الشعر الجاهلى ، مجلـــة عـــالم الفكر ، المجلد الخامس والعشرون -العدد الثالث ، ينـــاير/مـــارس ١٩٧٧ ، صـــ ٢٨٣.

١١- أبو نواس : ديوان أبو نـــواس ، بـــيروت ، دار صـــادر ، د.ت ، صـــ١٥٠.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

١٢- د. منجد مصطفى بهجت : البحر فى شعر الأندلـــس والمغـرب ، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت ، الحولية السابعة ، ١٩٨٦م، صـــ ١٥.

١٣- ابن عبد البر القرطبى : بهجة المجالس وأنس المجالس ، تحقيق د. محمد مرسى الخولى ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٩م ، جـــ١ ، صـــ ٣٥٣.

١٤- ديوان ابن رشيق : تحقيق د. عبد الرحمن يـاغى ، بـيروت ، دار الثقافة ، د.ت ، صـــ ٢١٢.

١٥- ديوان ابن خفاجه الأندلسى ، تحقيق سيد مصطفى غازى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠م ، صـــ ٢٧١.

١٦- د. منجد مصطفى بهجت : البحر فى شعر الأندلـــس والمغـرب ، صـــ٢١.

١٧- ديوان ابن خفاجه الأندلسى ، صـــ ٩٠.

١٨- د. سيد نوفل : شعر الطبيعة فـى الأدب العربـى ، القـاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨م ، ط٢ ، صـــ ٢٧٥.

١٩- ديوان ابن حمديس ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠م ، صـــ ١٣١.

٢٠- د. منجد مصطفى بهجت : البحر فى شعر الأندلـــس والمغـرب ، صـــ٣٦.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

٢١- ديوان ابن دراج القسطلى : تحقيق د. محمود على مكى ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٩٦١م ، صـ ٢٠.

٢٢- د. منجد مصطفى بهجت : البحر فى شعر الأندلس والمغرب ، صـ ٢١.

٢٣- د. حسين فوزى : حديث السندباد القديم ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٣م ، صـ ٣٥- ٣٧.

٢٤- محمد عبد الجبار النفرى : المواقف والمخاطبات ، تحقيق أرثر أربرى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م ، صـ ٧١.

٢٥- ديوان ابن الفارض : القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت ، صـ ٨١- ٨٢.

٢٦- ديوان مطران خليل مطران : بيروت ، دار صادر ، د.ت ، صـ ١٨٠.

٢٧- من أعمال الشاعر إيليا أبو ماضى ، بيروت ، دار كاتب وكتاب ، د.ت ، صـ ١٤٢.

٢٨- الشابى حياته وشعره : المكتبة العلمية ومطبعتهخا ١٩٥٢م ، ط١ ، صـ ١٨٩.

٢٩- هيا محمد عبد العزيز : صورة البحر فى الشعر العربى الحديث بالخليج ، ٦٥- ١٩٨٠ ، دار الثقافة ١٤٠٦هـ ، صـ ٧٦.

٣٠- على محمود طه : ديوان على محمود طه ، صـ ٢١٧.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

٣١- ديوان ناجى ، تحقيق أحمد رامى وآخرين ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، سلسلة تراثنا ، صـ٣٤.

٣٢- د. محمد غنيمى هلال : الرومانتيكية (القاهرة : دار نهضة مصر ، د.ت) ، صـ ١٣٧.

٣٣- زوستريفو هاملتون : الشعر والتأمل ، ترجمة د. محمد مصطفى بدوى (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر د.ت) ، صـ ١٧.

٣٤- د. عز الدين إسماعيل : الشاعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، القاهرة : المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤م ، ط٥ ، صـ ٢٧٩.

٣٥- السابق ، صـ ٢٣٥.

٣٦- السابق.

٣٧- الأعمال الكاملة ، القاهرة ، مدبولى ، ١٩٩٠م ، صـ ٥٤٧-٥١٩.

٣٨- ديوان حميد سعيد ، الجزء الأول : بغداد شركة مطبعة الأديب البغدادية ، ١٩٨٤م ، ط١ ، صـ ٤٣١- ٤٣٢.

٣٩- الأعمال الكاملة : القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م، صـ ٤٠٩- ٤١٠.

٤٠- إبداع ، السنة الخامسة ، العدد الثانى فبراير ١٩٨٧ ، صـ ٣٧.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

٤١- راجع صورة البحر فى الشعر الجاهلى عند امرىء القيس ، البحث صـ٣.

٤٢- ورد التداخل بين البحر والليل من حيث الظلمة فى قوله تعالى : {وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن ألن نقدر عليه فنادى فى الظلمات} "الأنبياء ، ٨٧" ، ويقصد بالظلمات : الليل والبحر وبطن الحوت ، وورد فى قوله تعالى : {أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض} "النور،٤٠".

٤٣- كمال نشأت : أحلى أوقات العمر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١م ، صـ ٢٩- ٣٠.

٤٤- ملك عبد العزيز : الأعمال الكاملة ، صـ ٦٢١- ٦٢٣..

٤٥- السابق ، صـ ٥٣٥.

٤٦- أدب ونقد : سبتمبر أكتوبر ١٩٨٩م ، صـ ٢٢٢.

٤٧- صلاح عبد الصبور : أعمال الكاملة ، صـ ٦٠٣.

٤٨- إبداع ، العدد الثالث - السنة السادسة ، مارس ١٩٨٨م ، صـ٤٥.

٤٩- السابق ، صـ ٦٢.

٥٠- محمد إبراهيم أبو سنة : البحر موعدنا ، القاهرة ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٧م ، ط٢ ، صـ ١٣- ١٤.

٥١- د. لويس عوض : دراسات أدبية (القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٩م) ، ط١ ، صـ ١٤١.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

٥٢- د. طه وادى : جماليات القصيدة المعاصرة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٢م ، صـ ٣٩.

٥٣- إبداع ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، أكتوبر ١٩٨٧م ، صـ ٤٦.

٥٤- سعدى يوسف : الأعمال الكاملة (بيروت ، دار الفارابى ١٩٧٩م) ، ط٢ ، صـ ٤١٩.

٥٥- هيا محمد عبد العزيز : صورة بالبحر فى الشعر العربى بالخليج - قطر : دار الثقافة ، ١٣٠٦هـ ، صـ ٨٥.

٥٦- عبد المنعم رمضان : الغبار ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م ، صـ ١٢٧.

٥٧- إبداع ، العدد الحادى عشر ، السنة الثانية ، ديسمبر ١٩٨٨م ، صـ ٣٨.

٥٨- ملك عبد العزيز : الأعمال الكاملة ، صـ ٥٧٣ - ٥٧٤.

٥٩- وفاء وجدى : ماذا تعنى الغربة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، ط٢ ، صـ ٣٥- ٣٦.

٦٠- حسن فتح الباب : وردة كنت فى النيل خبأتها ، تونس ، الدار القومية للتوزيع والنشر ، ديسمبر ١٩٨٥م ، صـ ٤١.

٦١- إبداع ، العدد الحادى عشر ، السنة الأولى ، نوفمبر ١٩٨٣م ، صـ ٧٣.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

٦٢- د. على عشرى زايد : عن بناء القصيدة الحديثة ، القاهرة ، مكتبة النصر ١٩٩٣م ، ط٣ ، صـ ٦٥.

٦٣- راجع البحث ص ١٢.

٦٤- راجع البحث ص ٢١.

٦٥- راجع البحث ص ٢٣.

٦٦- راجع البحث ص ٣٠-٣١.

٦٧- راجع البحث ص ٣٦ وما بعدها .

٦٨- راجع البحث ص ٢٣.

٦٩- راجع البحث ص ٢٦.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com